

الرسالة الفنية المملوكية وخصائصها الأدبية

The Mamluk Artistic Epistle and Its Literary Characteristics

د. دهاش خيرة - Kheira Dehache

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان (الجزائر)

kheiradehache2025@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/01/21

تاريخ الاستلام: 2025/11/13

ملخص:

لا يخفى على دارس الأدب أنّ الرسالة الفنّية في العصر المملوكي قد نالت مكانة متميّزة، وحلّت محلّ القصيدة الشعريّة، في عصر صارت فيه كتابة الرسائل ضروريّة تقتضيها حاجات الحكم والسياسة، لكنّ الحكم السائد أنّ العصر المملوكي عصر ضعف وانحطاط أدّى إلى عدم اهتمام النقاد بأدب هذا العصر. وهدفنا من خلال هذه الورقة البحثية هو إبراز الدور الفعّال للكاتب المملوكي في بلاط الحكم، بالإضافة إلى بيان أنواع الرسائل، والوقوف على الجانب الجماليّ فيها، ودراسة خصائص أساليب كتابتها. كما تتطلّع الباحثة إلى تحليل تلك الرسائل الأدبيّة وفق المناهج النّقديّة الحديثة التي لها علاقة وطيدة بالنقد العربيّ القديم كاللّغز، والوقوف على جماليات النّص المكتوب.

الكلمات المفتاحية: الرسائل الفنّية المملوكيّة؛ الدور الفعّال للكاتب؛ الرسائل الأدبيّة؛ أنواع الرسائل.

Abstract:

It is well known to students of literature that artistic epistles held a distinguished position in the Mamluk era, replacing poetic verses in an age when writing epistles became necessary for the needs of governance and politics. However, the prevailing view is that the Mamluk era was one of weakness and decline, leading to a lack of interest in the literature of this period among critics. Our aim in this research paper is to highlight the effective role of Mamluk writers in the court of government, in addition to explaining the types of letters, examining their aesthetic aspects, and studying the characteristics of their writers' styles. The researcher also aims to analyse these literary letters according to modern critical approaches that are closely related to ancient Arabic criticism, such as intertextuality, and to examine the aesthetics of the written text.

Keywords: Mamluk artistic letters; the effective role of the writer; literary letters; types of letters.

1. مقدمة:

تُدرج الرسائل الأدبية ضمن النثر الفنيّ، وميدان النثر الفنيّ العواطف ممّا يؤثر في المتلقي، ويجعله متجاوبا معه، فالرسالة الأدبية تصبغها صبغة العصر الذي كتبت فيه، وتنقسم هذه الرسائل بدورها إلى أنواع عديدة منها ما يكون إخوانيًا يخصّ العلاقات الأخويّة فيما بينها، ومنها ما يكون ديوانيًا سياسيًا، فالأديب احتلّ مكانة الملوك نظرا لتشجيع الحكّام المماليك للكتاب، فما هي دروب الرسائل السائدة في العصر المملوكي؟ وما خصائصها الفنيّة الجماليّة؟ وهل ترقى الرسائل المملوكيّة إلى مستوى الرسائل في العصور السابقة؟ أم أنّ لكلّ عصر صبغة فنيّة تميّزه عن غيره من العصور؟

2. ماهيّة الرسالة:

يعرّفها ابن منظور بقوله: "رسل... وراسله مراسلة، فهو مراسل ورسيل. والرسل والرسلة: الرّفق والتؤدة"¹ وحسب ما قاله ابن منظور فإنّ الرسالة معناها الرّفق والتمهّل، وترسل بمعنى تمهّل أي قال كلامه بتأنٍ. والترسل من: "ترسلت أترسل ترسلًا وأنا مترسل، كما يقال توقفت أتوقف توقفاً وأنا متوقّف ولا يقال ذلك إلّا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر، كما لا يقال تكسّر إلّا لمن تردّد عليه الفعل في الكسر ويقال لمن فعل ذلك مرّة واحدة أرسل يرسل إرسالاً وهو مرسل، والاسم رسالة، أو راسل يرسل مراسلة فهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يرسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق في ذلك أنّه كلام يرسل به من بعد أو غاب"² والرسالة مرتبطة بالبعد والغائب أمّا الحاضر فيكلم مشافهة، أمّا الرسالة فلا تكون له إلّا في القليل النادر. يقول قدامة بن جعفر "ومنه البيان الذي هو نطق باللسان، ومن البيان بالكتاب الذي يبلغ من بعد أو غاب"³ والرسالة هي الكلام الذي أرسل إلى الغير والفرق بينها وبين الكتاب على ما هو المشهور إنّما هو بحسب الكمال والنقصان. فالكتاب هو الكامل في الفنّ والرسالة غير الكامل فيه.

3. مكانة الكاتب وقيّمته:

وقد نالت كتابة الإنشاء مكانة عالية في الأدب العربيّ "فهو أشرف الصنائع وأرفعها وأربح البضائع وأنفعها. وأفضل المآثر وأعلاها. وأثر الفضائل وأغلاها. لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها. وإنسان عينها بل عين إنسانها. لا تلتفت الملوك إلّا إليها. ولا تعول في المهمات إلّا عليها. يعظّمون أصحابها ويقرّبون كتابها. فحليفها أبدا خليف بالتّقديم. جدير بالتّبجيل والتّكريم"⁴ إذ قاربت منزلة الكاتب الأديب منزلة السلطان وعظمته في التّبجيل.

وحظيت من "فضلاء الكتاب بما لم تحظ مملكة من الممالك، ولا مصر من الأمصار. وحوّت من أهل الفضل والأدب ما لم يحو قطر من الأقطار. فما برحت متوّجة بأهل الأدب في الحديث والقديم. مطرزة من فضلاء الكتاب بكلّ مكين أمين، وحفيظ عليم. نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه"⁵ نال الأديب المملوكي مكانة مرموقة، مزخرفة بالقرآن الكريم.

ومن الأدلة الدالة على فضل الكتابة، ودورها الفعّال في إعلاء مكانة الأديب قول القلقشنديّ: "وقد نبه قوم بالكتابة بعد الخمول، وصاروا إلى الرّتب العليّة، والمنازل السنيّة. منهم سرجون بن منصور الرّومي كان روميا خاملا فرفعته الكتابة وكتب لمعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان. ومهم حسان التّبطي كاتب الحجلج، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الأكبر، وعبد الصّمد، وجبله بن عبد الرّحمن"⁶ الكتابة ترفع أصحابها، وتعلي قيمتهم.

4. دروب الرّسائل:

1.4 الرّسائل الإخوانيّة:

وهي الشّخصيّة والدّاتيّة والرّسائل التي يوجهها الشخص إلى صديقه أو قريبه أو زميله تُعرف بالرّسائل الأهلية، ويعبر فيها الكاتب عن نفسه بحرية ودون التقيد بالأساليب الأدبية الصارمة. أما الرّسائل التي يرسلها أديب إلى أديب آخر لمناقشته في قضية أدبية أو لتبادل الخبرات حول عصر من العصور، فينبغي أن تُنشر بعد وفاة صاحبها، خدمةً للأدب، مع استبعاد ما قد يسيء منها.⁷ فأما الشّخصيّة منها فتكون لعدد محدود من القراء، أمّا الرّسالة الأدبيّة فتُنشر، يقرأها عدد لا يمكن حصره من القراء.

وتُدعى الرّسائل الإخوانيّة بأنّها نوع من الرّسائل الأهلية النبيلة، تعكس مشاعر الكاتب وعواطفه تجاه الآخرين. وتُسمى أيضًا بالرّسائل الأهلية أو رسائل الأشواق، إذ دارت بين الأقارب والأصدقاء، وكشفت عن مكنون الود وسرائر الفؤاد، ولا مانع من أن يعبر الكاتب فيها بحرية وييسّط الكلام على سجيّته وطبيعته الشخصية.⁸ إذ تتعلّق بالإنسان القريب الحبيب الذي نفصح له عن معاني الحبّ والتّقدير.

فالرّسالة الإخوانيّة تُوجّه إلى شخص محدّد، وتحمل معاني وجدانية شخصية تربط كاتبها بالمستقبل، موضحة طبيعة العلاقة بينهما. كما تتعلّق بأغراض ومناسبات معينة، وتحمل في طياتها سمات أعراف المجتمع المملوكي، بما في ذلك أسلوب حياة المصريين وعلاقاتهم وعاداتهم وتقاليدهم واحتفالاتهم.⁹ فمن خلال اطلاعنا عليها نفهم عادات المجتمع المملوكي، واحتفالاته، بالإضافة إلى الحياة الشّخصيّة فإنّنا نجدهم يتراسلون في أمور أخرى مثل الإصلاح وغيره.

إذ "يتراسلون في أمر سداد ثغر، وإصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو مجادلة لمسألة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطيّة، أو تعزية برزّيّة"¹⁰ تتعدّد مجالات الرّسالة من إصلاح وتهنئة وتعزية.

ومن أمثلة الرّسائل الإخوانيّة نجد قول الكاتب الحلبيّ مهنّا أحد إخوته الذي رزق بمولود ذكر، وهو في ذلك حريص على تهنئته وبثّ السّعادة ومشاركة الأفراح، فمن ذلك رسالة الحلبيّ التي يستهلّها بقوله: "المملوك يخدم المولى ويهنيّه ويشكره، ويطلعه على كلّ ما حصل له من الابتهاج للسّبب الذي ينهيه ويذكره، وهو أنّه اتّصل به قدوم المسافر بل إسفار البدر، وظهور ميمون الغرة الذي جاء لأهله بأمان من صروف الدّهر، وهو الولد

العزیز الموفق التَّجِيب، فلان، أبقاء الله تعالى ليحيا مشكوراً محموداً، منصوراً بسيف مجده وسان سعدة مسعوداً، وأدام عزه وعلاه، وأعلى نجمه وخلد شرفه وبهاده، وضاعف سناءه وسناه، وأرانا منه ما أرانا من الشهادة في أبيه، فسُرَّ وابتهج بهذه النعمة غاية السرور والابتهاج، واتَّضح له في شكر إحسان المولى وحسن ولده كلَّ طريق ومنهاج، وسأل الله تعالى أن يطوّل له عمراً، ويجعله لإسعاد والده وإسعافه ذخراً، ليرتعا في رياض الدِّعة في صحّة وسلامه، ويجعلا في فناء العلا لهما دار إقامة، ويبلغا من السعادة درجة لا تريم عالية ولا ترام وتخضع لها الليالي والأيام، ويرشّقاها بسهام الصّروف ويطعناهما بأستّتها، ويفهما دعاء الأيام لهما من صُدورها ويسمعاه من ألسنتها، مخاطبة لأبيه، ومنشدة لسائر أهله ومحبيه¹¹ فالكاتب مبتهج بتهنئة المهناً الذي رزق بمولود جديد، الذي أتى إلى أهله بصفة عامّة، ووالديه بصفة خاصّة، ليؤمنهم من نكبات الدّهر، فالولد الذّكر حامل لاسم عائلته وحاميها، ويأمل الكاتب أن يكون مثل أبيه، الذي شكر الله على نعمة الإنجاب، طالبا من الله عزّ وجل أن يطيل في عُمره، ويجعله سببا في إسعاد والده، لأنّ الفرحة به قد عمّت والده وأهله ومحبيه.

- خصائصها الفنيّة:

لابدّ للرسالة الفنيّة حتّى تحقّق فنيّتها من خصائص فنيّة كاحتوائها على المحسنات البديعيّة من سجع وطباق وغيرهما، ف: "المرسل والمسجع الذي تنتهي جملة بألفاظ تكون متقاربة في الرّويّ وهي شبيهة يُعتبر النثر قسيم الشّعْر في ميدان الأدب، والأدب في مفهومه العام هو كلّ ما يُثير فينا أحاسيس جمالية، أو انفعالات عاطفيّة، بفضل خصائص صياغته، وبالتالي فقد واكب النثر الشّعْر في مسيرة الأدب"¹² للنثر الفنيّ خصائص تميّزه عن الكلام العادي، ومن أبرز هذه الخصائص نجد: السّجع، الذي يضيف جانبا جماليا على النصّ المكتوب. ينقسم إلى أقسام عدّة ف: "ليس يخلو النثر من أن يكون خطابة أو ترسّلا أو احتجاجا أو حديثا، ولكلّ واحدة من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه"¹³ ذلك أنّ الرّسالة تكتب للبعيد والغائب، في حين تبقى باقي الأنواع التثريّة للحاضر.

فمن خصائص الرّسالة أنّها تتضمّن كلاما، وهي غير كاملة حسب ما يرى التّهناوي. والمراد بالترسّل صناعة الكتابة فمن ذلك قول القلقشنديّ: "من المكاتبات والولايات والمساحات والإطلاقات ومناشير الإقطاعات والهُدُن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها"¹⁴ وتكون الرّسالة من المناشير أو الهُدُن أو الأمانات.

الرّسالة: "فنّ من فنون النثر القولية، عرفها العرب منذ القدم، وهي مثل فنون النثر الأخرى {القصّة، المسرحيّة، السيرة الدّائيّة...} لها خصائصها المتميّزة التي تجعلها فنا قائما بذاته"¹⁵ وللرسائل خصائص فنيّة تميّزها عن غيرها من الفنون الأدبيّة.

ويعتقد بعض الباحثين أنّ فنّ الرسائل تطوّر بعد الإسلام طبقاً للمقولة المشهورة: "بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد"¹⁶ فالرسالة في العصور السابقة لم تكن فنّيّة قبل عبد الحميد الكاتب - بالدرجة التي يستحسنها القارئ.

2.4 الرسائل الديوانية:

كلما ازداد أعداد الدواوين، ارتفعت الحاجة إلى كتاب الرسائل الديوانية. فالرسالة الديوانية تصدر بناءً على أمر رسمي من الخليفة أو الأمير إلى والي أو وزير أو شخصية بارزة معينة، ومن ثمّ تتطلب من كاتبها ثقافة واسعة في الأدب واللغة والتاريخ، بالإضافة إلى حفظ عدد من الشواهد الشعرية والنثرية والأقوال والحكم، لا سيما ما يتعلق بالقرآن والحديث. وتتميّز الرسالة الديوانية بأسلوبها الرصين، المنمّق، والبلاغي¹⁷ فالأديب لا يكون محصور المعارف، وإنّما ذو معارف دينيّة، وأدبيّة وتاريخيّة.

أُيِّعت في عصر المماليك، وامتدّت حياتها على نسق ما كانت عليه في العصور السالفة، وشاركت مشاركة جليّة في تأديّة حاجة الدولة في التعبير عن شعورها الرسميّة وما تتطلبه حاجة دواوينها، كما أدّت حاجة الشعب في شتى شئونهم الحيويّة، فصارت بذلك سجلاً حافلاً وترجماناً صادقاً¹⁸ ومن أمثلة الرسائل الديوانية نجد نموذجاً من هدنة لقلوب الكاتب: "والله والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله، وحقّ المسيح وحقّ المسيح، وحقّ الصليب وحقّ الصليب... وأصفيت طويّتي في الوفاء للسلطان الملك المنصور ولولده الملك الصالح و لأولادهما، بجميع ما تضمّنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد الصلح عليها"¹⁹ ففي هذه الرسالة نجد الكاتب يستهلّها بالقسم بالله عزّ وجلّ، وهذا القسم قد كرّره ستّ مرّات، وغرضه التأكيد، بغية التصديق، وبعد ذلك تطرّق للقسم بالمسيح، والصليب، بأنّه صادق في إقامة الهدنة.

وتدعى بالرسالة الرسميّة {الإداريّة}: وهي الرسائل التي تصدر عن إدارة أو هيئة معينة تُرسل إلى فرد من الأفراد، أو العكس، أي من الفرد إلى الإدارة أو الهيئة.²⁰ وأما الرسالة الرسميّة فتكون بين المسؤولين وغيرهم تجاه المسؤولين عنهم، أو العكس.

3.4 خصائص الرسالة الرسميّة {الإداريّة}

- من حيث المضمون:

ينبغي أن يُوجد في: "الرسالة مضمون، وزمان، ومكان، أمّا المضمون فيشمل: محتوى الرسالة. والمكان: الذي صدرت منه الرسالة إلى الشخص المرسل إليه، وأمّا الزمان، فهو زمن الإرسال".²¹ ومثل هذه الأمور يجدها المرسل إليه في طيّات الرسالة الموجهة إليه، ولا إرسال رسالة من دون ذلك.

- من حيث الشكل:

"يجب ذكر 1 - اسم المرسل إليه: وينبغي أن يُخاطب المرسل إليه بقدره ولقبه دون زيادة أو نقصان. 2- التحية. 3- الموضوع {المضمون}. 4- التحية في آخر الرسالة. 5- المرسل {التوقيع}. 6- العنوان. 7-

التاريخ²² لا تكاد تخلو رسالة من هذه الخصائص التي ذكرناها، فلا بدّ من ذكر المرسل والمرسل إليه، ليتمّ التواصل بينهما، كما أنّ موضوع الرسالة من الصّوريات التي لا يُمكن الاستغناء عنها.

أمّا في الرسالة الموجهة من إدارة الموجهة من إدارة إلى شخص، فتكون الفقرات الثلاث الأخيرة: أولاً فيصبح الترتيب على النحو الآتي: "1- المرسل. 2- العنوان - التاريخ. 3- اسم المرسل إليه. 4- اسم المرسل إليه. 5- التّحية.

6- الموضوع {المضمون}. 7- التّحية في آخر الرسالة²³ الفرق بين الرسالة الشّخصية والإدارية أنّه في الرسالة الشّخصية يتمّ تكرار التّحية، لأنّ الشّخص غالباً ما يكون قريباً منه، فالرسالة الشّخصية والأدبية ميدان للإفصاح عن العواطف تجاه المرسل إليه، والمبالغة في ذلك، أمّا في الرسالة الرسمية فتكون التّحية مرّة واحدة، والغرض منها احترام المسؤول.

ومن الجدير بالذكر أنّ الرسائل الرسمية في العصر المملوكي كانت تعبّر عن النظام الإداري الدقيق الذي ميّز الدولة آنذاك، إذ لم تكن الرسالة مجرد وسيلة للتواصل، بل كانت وثيقة رسمية تحفظ الحقوق وتوثّق القرارات. لذلك، كان الالتزام بالقواعد الشكلية واللغوية أمراً أساسياً، لأنّ الرسالة كانت تُعدّ مرآة لمستوى التنظيم والإدارة، ودليلاً على رصانة الدولة وهيبته. كما كان الأسلوب في هذه الرسائل يمتاز بالجدّ والوقار، بعيداً عن التكلّف أو العاطفة، مع الحرص على الوضوح والدقّة في نقل المعاني والتعليمات.

كما نلاحظ أنّ الرسائل الإدارية قد أسهمت في تطوّر فنّ الكتابة الديوانية، إذ أفرزت طبقة من الكتّاب المبدعين الذين جمعوا بين البلاغة والقدرة على التعبير الإداري الرسمي. وقد كان الكاتب المملوكي يسعى إلى تحقيق التوازن بين جمال الصياغة وحزم المضمون، بحيث يعبّر عن الاحترام الواجب للمخاطب دون أن يفقد النصّ طابعه الرسمي. وبهذا، أصبحت الرسائل الرسمية وثائق تحمل في طياتها بعداً فنياً إلى جانب قيمتها الإدارية، فجمعت بين الفنّ والوظيفة، وبين الأدب والنظام.

5.4 البناء الفنيّ للرسالة:

ينبغي أن تكون الرسالة متماسكة البناء، متألّفة الأجزاء، ألفاظها على قدر معانيها، ومعانيها ملائمة لغرضها ولها أجزاء تتمثّل فيما يلي: "المقدّمة، والعرض، والخاتمة وهي ما يكتبه شخص لآخر معبّراً فيها عن شؤون خاصة أو عامة. وتكون الرسالة في هذا المعنى مختصرة، لا تتجاوز سطوراً محدودة، وينطلق الكاتب فيها عادة على سجيته، دون تصنّع أو تأنّق. ومع ذلك، قد يسعى أحياناً إلى استخدام البلاغة والغوص في المعاني الدقيقة، ما يرفع بها مستوى الرسالة إلى مرتبة أدبية رفيعة.²⁴ لأنّها تكون على سجيته.

ومن الجدير بالذكر أنّ البناء الفنيّ للرسالة في العصر المملوكي لم يكن يعتمد على الشكل الخارجي فحسب، بل كان يقوم على وحدة الفكرة وتدرّجها المنطقي، بحيث تتصل المقدمة بالعرض والخاتمة اتصالاً وثيقاً يحقق الانسجام التام بين الأجزاء. فالمقدّمة تُمهّد للفكرة وتثير اهتمام القارئ، بينما يتناول العرض جوهر الموضوع مدعوماً بالحجج والأدلة، ثمّ تأتي الخاتمة لتوجز المقصود وتترك أثراً قوياً في نفس المتلقّي.

كما يتّضح أن الرسالة المملوكية لم تكن مجرد وسيلة تواصل، بل كانت ميداناً فنياً يبرز فيه الكاتب قدرته على الصياغة والبيان، ومهارته في اختيار الألفاظ وتنسيق المعاني. فهي تجمع بين الوظيفة العملية والغاية الجمالية، إذ تعبّر عن فكر صاحبها وشخصيته، وتكشف عن ثقافته وذائقة الأدبية. ومن هنا اكتسبت الرسالة مكانتها البارزة في الأدب المملوكي، بوصفها نموذجاً للفنّ النثري الرفيع الذي يجمع بين المعنى والمبنى، والعقل والعاطفة، والفكر والبلاغة.

6.4 الرسالة الأدبية:

وهي رسالة أشبه بالمقال في عصرنا الحديث، يقوم الكاتب فيها بالانشغال بموضوع معين يهمله، ومن أبرز هذه الرسائل وأكثرها شيوعاً الرسائل الوصفية.²⁵ وقد دّبج محي الدين ابن عبد الظاهر رسالة في وصف القادة والجيوش المماليك- وهي رسالة أدبية يغلب عليها الوصف- يقول فيها: "يقبّل الأرض بساحات الأبواب الشريفة السيديّة، الصّاحبيّة البهائيّة، لازالت ركائب السيّر تحثّ إلى أرجائها السيّر، وصروف الزّمن تسالم خدامها وتحلّ الغير بالغير، ولا برحت موطن البرّ ومعدن الجود وبحر الكرم وعكاظ الخير... ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كلّ بيت منها بقصيد بيت القصيد، وأنّ في مآثره الرّسائل التي شاعت، وضاعت نفحاتها في الوجود وكم رسالة غيرها في غيره ضاعت رأي أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة يلّمح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرّخ أو يصنّف، وإنّما قصد بها أن يتحف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتّساع كلماته، لأنّ الله قد شرف المملوك بعبوديّة مولانا: والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحه، فمولانا يتطوّل في المسامحة"²⁶.

فالكاتب قد بدأها بالألقاب السلطانية، وهذه سمة بارزة في العصر المملوكي مثل قوله: {الشريفة، الصّاحبيّة البهائيّة}، فالكاتب يذكر مآثر القادة المماليك ذلك أنّ أحصنتهم لازالت تدعوهم إلى الجهاد، فالأزمات صارت مسالة لأصحابها، نظراً لأنّها صارت تحلّ بأطراف أخرى دخيلة، ذلك أنّ موطن أصحابها الخير، فالكاتب المملوكي قد اندرج ضمن هذا التّظام، ونظم العديد من الأبيات في مدحهم، وكتب رسائل قد شاعت وذاعت في مدحهم، فانتشر ذكرهم، كما أنّه قد ضاعت بعض الرّسائل بفعل الغيرة، فالملك مشكور لأنّ الله عزّ وجل - حسب قول الكاتب - شرفه بأن يكون سيّدا عليه.

يتّضح من خلال هذه الرسائل الأدبية أنّ الكاتب المملوكي لم يكن مجرد ناقل للأحداث أو واصف للمظاهر، بل كان فناً يصوغ كلماته بعناية ليجعل من رسالته لوحة فنية تنبض بالحياة. فقد امتازت هذه الرسائل بالجمع بين الواقعية في الوصف والدقة في التصوير، وبين البلاغة في التعبير وجمال الأسلوب، فغدّت نصوصاً ذات قيمة أدبية وتاريخية في آنٍ واحد، تعكس روح العصر وتوجّهاته الفكرية والسياسية. كما كان الكاتب يسعى من خلالها إلى تمجيد الملوك والقادة، وإبراز هيبتهم ومآثرهم بأسلوب يجمع بين الفخر والوفاء.

ومن ناحية أخرى، تكشف الرسالة الأدبية المملوكية عن عمق التفاعل بين الأدب والسلطة، إذ كانت وسيلة للتقرب من الحكّام والتعبير عن الولاء لهم، وفي الوقت نفسه وسيلة لإبراز براعة الكاتب وتمكّنه من فنون اللغة والبيان. فهي تُظهر كيف تحوّل الإنشاء في ذلك العصر من مجرد أداة تواصل إلى فنّ قائم بذاته، تتجلى فيه البلاغة العربية في أبهى صورها، ويتجلى من خلاله الحسن الجمالي المرهف والقدرة على التوظيف الفني للمفردة والمعنى.

5. المحسنات البديعية:

المحسنات البديعية تضيف على الكلام طابعًا جماليًا، وهي علم يُعنى بتحسين الكلام، ويُعرف باسم "علم البديع".²⁷

ومن أمثلة الرسائل المملوكية في ذلك العصر أيضا نجد قول الكاتب في مرسوم له: "الحمد لله الذي خصّ من وإلى هذه الدولة بالتقدمة والفخر، ورمى من عاها بالمذلة والقهر، ومدّ عُمر أيامها حتى يُستنفذ الدهر، وحتى تُوصف أيامها - وإن قصّرت - بالمسار: كلّ شهر يمر منها كالعام و اليوم كالشهر.

نحمده على ما منحنا: من تأييد وظفر، وطوى دعوة من عاندنا بعد النّشر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إن دخلت شواهدا تحت الإحصاء فلا تدخل فوائدها تحت الحصر، وأنّ محمدا عبده ورسوله الذي جعل الله به الهداية المبدأ والشفاعة في المعاد يوم الحشر، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تُسعد بعد الشّقاء وتجبر بعد الكسر.

وبعد، فإنّ الله سبحانه وتعالى لما مكّن لنا في الأرض، وجعل بيدنا البسط والقبض، وأرانا كيف نصنع الجميل ونُجمل الصّنع، وكيف نُجبر قلب من جُعل في أيامنا جبره بعد الصّنع، وكيف تُصبح أنجم ذوي الأقدار في سماء مملكنا نيرة المطالع، وكيف نُلقى الخير في عراضها من رame إذا كان على الخير في غير أيامنا مانع، وكيف نُحلّ التّقدمة فيمن إذا عقل في حُللها قيل: هذا هو أحقّ بها ممن كان، وهذا الذي ما برحت التّقدمة في بيته في صدر الزّمان، وهذا الذي إذا ذُكر آل فضل وآل علي كانت له مرتبة الشّرف"²⁸ فهذه الرسالة نجدها تزخر بالمحسنات البديعية منها:

أ- السّجع: في قوله: الفخر، القهر، الدهر، الشّهر. ظفر، النّشر، الحصر، الكسر، فكأنيّ به قد كتب قصيدة رويّها حرف الرّاء. وقوله أيضا: الأرض، القبض، الصّنع، الصّنع، وأيضا: المطالع، مانع.

ب الطّباق: والشّهر والعام، واليوم والشّهر، البسط والقبض. وهو طباق الإيجاب.

الجِناس: دهر وشهر، وهو جناس ناقص.

6. التناس مع القرآن الكريم:

يلجأ الكاتب في العصر المملوكي إلى الاستعانة بالقرآن الكريم لتحسين كتاباته، حيث يستقي منه الآيات ويضيفها إلى نصوصه، مما يمنحها جمالاً وروعة فائقة. ومن هنا، يتضح أن كاتب الإنشاء يُعَدُّ من أكثر الناس حاجةً للاستشهاد بكلام الله تعالى، إذ يُعتبر ذلك زينة للرسائل وُحْلِيَّةً للإنشاءات، كما يقوِّي النص ويثبت صحته في الأفهام. وعندما يغيب هذا الاستشهاد، تصبح الكتابة خالية من المحاسن ومفقودة للفضائل.²⁹ فالقرآن الكريم هو الكلام المعجز البليغ، فعند الاستشهاد به يؤثر في متلقيه، ويجعل الكلام قويًا متماسكًا، وكلّ كلام خال من الاستشهاد به لا يرقى إلى مستوى الحُسن.

يقول جمال الدين بن نباتة في نسخة توقيع: "وُرجع إليه في الزكاة المستحقّ نصابها حتى يقال: رجع الحقّ إلى نصابه... علما بأنّه الكافي الذي إذا شدّ سدّ، وإذا قصر رأيه على الصُّنع الجميل مدّ، والخبر الذي إذا جمع مالا وعدّده كان مشكوراً، وإذا فرّقه في مستحقّيه كان خلاف الغير بالخبر مذكورا، والتأهض الذي ما تبرّم بمضايق المهّمّات ولا شكاهها، والمهيبُ الذي قد أمّن من سار بالبضاعة إليه وقد أفلح من زكّاهها فليستقر في هذه الجهة استقراراً يزيد مكانه وإمكانه، ويثمر عمله وديوانه، ليوصل كلّ ذي حقّ حقه فإتّما بُسّطت أيدي ولاة الأمور ليبسط عدله متولّيها وإحسانه. وتقوى الله تعالى هي العمدة: فليُحقّق باعتمادها فيه ظُنون الرّاجين، وليستعن بها على رضا المستنهضين له وعلى رضا المحتاجين"³⁰.

فموضوع هذا التوقيع الزكاة، وهي أحد أركان الإسلام الخمسة، لأنّ الله عزّ وجل هو الكافي في كلّ شيء، والكاتب من خلال هذه الرسالة المقتضبة ذو ثقافة دينيّة فقولته: الذي إذا جمع مالا وعدّده كان مشكوراً³¹ مقتبس من قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)﴾³² فالملاحظ لما جاء في الرسالة يرى الكاتب حافظاً لكتاب الله عزّ وجل، عارفاً بما جاء فيه.

إنّ هذا التناسّ القرآني في الرسائل المملوكية لم يكن مجرد تزيين لفظي أو توظيف بلاغيّ فحسب، بل كان وسيلةً لإضفاء الشرعية الدينية على مضمون الرسالة وإظهار مكانة الكاتب العلمية والثقافية. فكاتب الإنشاء في العصر المملوكي كان يسعى من خلال استحضار الآيات الكريمة إلى تأكيد هيئته الأدبية وإقناع المتلقّي بعمق علمه وتمكّنه من البيان، مما يجعل النصّ ذا بعدٍ روحيّ ومعنويّ يعلو على مجرّد الإنشاء الرسمي.

كما يُلاحظ أنّ هذا التناسّ يعكس مدى ارتباط الأدب المملوكي بالثقافة الإسلامية، إذ كانت النصوص الدينية تمثّل المرجع الأعلى في التفكير والتعبير. فالكاتب المملوكي لم يكن يقتبس من القرآن الكريم لمجرّد الاقتباس، بل كان يوظّف الآيات بما يخدم المعنى ويعزّز الفكرة، فيجعلها ركيزةً أساسيةً في بناء نصّه. وبهذا، يظهر التأثير القرآني بوضوح في الأسلوب والمعنى، فيضفي على الرسائل المملوكية طابعاً من القداسة والجزالة والعمق البياني.

7. الخاتمة:

تتسم الرسالة في العصر المملوكي بخصائص أدبية ووظيفية مميزة، إذ تعكس مكانة الكاتب الاجتماعي والثقافي، وتبرز أسلوبه في التعبير عن الأفكار والمشاعر. كما يظهر فيها بناء فني محدد يتضمن التحية والمقدمة والعرض والخاتمة، مع تنوع في أنواع الرسائل بين الشخصية والديوانية والأدبية، مما يجعل دراسة هذه الرسائل نافذة لفهم الذوق الأدبي والقدرة البلاغية للمجتمع المملوكي. ومن خلال هذا الإطار، يمكن استخلاص أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة كما يلي:

- اختلاف تعريفات الرسالة فمنهم من يرى معناها الرفق، ومنهم من يرى أنها متعلقة بالغائب.
 - حصول الكاتب المملوكي على مكانة عالية في عصره قاربت مكانة الملوك.
 - ابتداء الرسالة المملوكية ببناء خاص يتمثل في التحيّة وغيرها.
 - اعتماد الكاتب المملوكي على مقدّمة وعرض وخاتمة.
 - انقسام الرسالة إلى عدّة أقسام منها: الرسالة الشخصية، والديوانية، والأدبية.
 - تميّز العصر المملوكي بكثرة الرسائل المملوكية على اختلاف موضوعاتها.
 - تميّز الرسالة المملوكية بكثرة المحسنات البديعية، والاقتباس من القرآن الكريم.
- تدل هذه النتائج على أن الرسالة المملوكية كانت أكثر من مجرد وسيلة تواصل، بل شكلت أداة للتعبير الثقافي والسياسي والاجتماعي، كما أنها عكست براعة الكاتب في المزج بين الغرض العملي والجمالي. ومن هنا يمكن اعتبار الرسالة المملوكية إرثاً أدبياً غنياً يعكس الذوق الفني والقدرة البلاغية العالية، ويكشف عن طبيعة المجتمع المملوكي من خلال مواضيعه، وأساليبه، وبنيتة الفنية المتقنة.

8. الهوامش:

- 1 - ابن منظور، لسان العرب، د.ط، المجلد 11، دار صادر، بيروت، لبنان: د.ت، مادة رسل، ص 281.
- 2 - المصدر نفسه، ص 95.
- 3 - المصدر نفسه، ص 9.
- 4 - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، دار الكتب المصرية، مصر: 1922، ص 06.
- 5 - المصدر نفسه، ص 06.
- 6 - المصدر نفسه، ص 40.
- 7 - ينظر، حسين علي محمد، التحرير الأدبي - دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، ط 7، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية: 2011، ص 152.
- 8 - ينظر، أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج 1، ط 27، المكتبة التجارية الكبرى، مصر: 1969، ص 45.
- 9 - ينظر، وليد سمير، قراءة وتعبير - اللغة العربية، د.ط، جامعة بنها كلية الآداب برنامج التعليم المفتوح: د.ت، ص 03.

- 10 - ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الشّاعر والكاتب، د.ط، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القسم الرابع، د.ت، ص 07.
- 11 - أبو العباس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 9، د.ط، دار الكتب السلطانيّة، القاهرة، مصر: 1916، ص 59.
- 12 - أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفه، أنواعه، مذاهبه، د.ط، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، لبنان: د.ت، ص 20.
- 13 - قدامة بن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان: 1982، ص 93.
- 14 - أبو العباس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 1، ص 54.
- 15 - حسين علي محمد، التحرير الأدبيّ، دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، ص 15.
- 16 - المصدر نفسه، ص 150.
- 17 - ينظر، محمد التّونجي، المعجم المفصّل في الأدب، ج 1، ط 2، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان: 1999، ص 479.
- 18 - ينظر، محمود رزق سليم، الأدب العربيّ تاريخه في عهد المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، د.ط، مطابع دار الكتاب العربي، مصر: 1957، ص 27.
- 19 - القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 13، ص 313.
- 20 - ينظر، المصدر نفسه، ص 152.
- 21 - المصدر نفسه، ص 152.
- 22 - المصدر نفسه، ص 152.
- 23 - المصدر نفسه، ص 152 .
- 24 - ينظر، جَبّور عبد النّور، المعجم الأدبيّ، ط 1، دار الملايين للعلم، بيروت، لبنان: 1979، ص 122.
- 25 - ينظر، وليد سمير، قراءة وتعبير، ص 03.
- 26 - القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 14، ص ص 139-140.
- 27 - ينظر، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، د.ط، المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان، د.ت، ص 16.
- 28 - القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 12، ص 128.
- 29 - ينظر، القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 1، ص 63.
- 30 - القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج 12، ص ص 304-305.
- 31 - المصدر نفسه، ص 305.
- 32 - سورة الهمزة، الآية 02.

6. قائمة المراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، د.ط، المجلد 11، (بيروت، لبنان: دار صادر، د.ت).
2. أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، (مصر: دار الكتب المصرية، 1922).
3. أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 9، د.ط، (القاهرة، مصر: دار الكتب السلطانية، 1916).
4. أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج 1، ط 27، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، 1969).
5. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، د.ط، (بيروت، لبنان: المكتبة العصرية صيدا د.ت).
6. أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفه، أنواعه، مذاهبه، د.ط، (بيروت، لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، د.ت).
7. جبر عبد التور، المعجم الأدبي، ط 1، (بيروت، لبنان: دار الملايين للعلم، 1979).
8. حسين علي محمد، التحرير الأدبي - دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، ط 7، (الرياض، السعودية: مكتبة العبيكان، 2011).
9. ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب، د.ط، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القسم الرابع، د.ت.
10. قدامة بن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1982).
11. محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ج 1، ط 2، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1999).
12. محمود رزق سليم، الأدب العربي تاريخه في عهد المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، د.ط، (مصر: مطابع دار الكتاب العربي، 1957).
13. وليد سمير، قراءة وتعبير - اللغة العربية، د.ط، جامعة بنها، كلية الآداب برنامج التعليم المفتوح: د.ت.